واذا كانت الحركة القومية قد ازدهرت في خضم المواجهة مع الصهيونية، فيمكن القول انه في خضم هذه المواجهة ايضا عانت الحركة من الذبول والتدهور. ذلك ان هزيمة ١٩٦٧، لم تكن مجرد هزيمة في معركة عسكرية، وانما كانت، في الحقيقة، بمثابة ضربة قاصمة للتيار القومي بكامله؛ اذ انهزم اهم جناحين في الحركة القومية وهما: الناصرية والبعث. الامر الذي افقد الفكر القومي قدرا كبيرا من مصداقيته لدى الجماهير، وبخاصة ان الهزيمة دفعت النظم العربية، وحتى الراديكالية منها، للتراجع عن مواقعها السابقة بشان القضية الفلسطينية، وراحت تتجه تدريجيا نحو القبول بالتسوية، وبوجود الكيان الصهيوني، وارتبط هذا الاتجاه بالتخلي عن صيغة الوحدة العربية واستبدالها بصيغة التضامن العربي الفضفاضة التي هي في جانبها الرئيسي اقرار بواقع التجزئة.

على اية حال، يمكن القول انه اذا كان التيار القومي قد عجز عن تحمل عبء المواجهة مع الصهيونية عندما كان التيار السائد فكريا وسياسيا في المنطقة، فمن باب اولى ان يظل هذا التيار، وهو في مرحلة تراجعه الواضح، عاجز عن الوصول الى صيغة او استراتيجية قومية للمواجهة.

واذا كان لهذا التيار من اثر يعتد به، في هذا المجال، فقد استطاع، خلال فترة، ان يجعل المواطن العربي العادي على وعي بابعاد المخطط الصهيوني وبابعاد قضية الشعب الفلسطيني، وهو الاثر الذي لا يزال في جانب كبير منه قائما حتى الان.

٣ ــ الفكر الاصلاحي التحديثي

بداية، نحن نقصد بهذا التيار، ذلك الذي يحلو احيانا للبعض ان يطلق عليه اسم التيار الليبرالي او العلماني. ويمكن القول ان اهمية هذا التيار على خريطة الحياة الفكرية والثقافية في المنطقة، قد تراجعت منذ فترة طويلة نسبيا، بحيث لم يعد يلعب دورا يعتد به، ورغم هذا، فان اهميته تنبع من الدور الهام الذي لعبه في الحياة الثقافية والفكرية العربية لفترة طويلة من تاريخنا المعاصر، ويرجع ذلك لاكثر من عامل:

اولا: ان الفكر الاصلاحي التحديثي كان اول التيارات الفكرية المناهضة للدولة العثمانية، وبالاصح للايديولوجية الرسمية لها، والتي اعتمدت على تفسيرات عتيقة للنصوص.

ثانيا: ان هذا الفكر قد انفرد بالساحة الثقافية في المنطقة لفترة طويلة، بحيث لم يكن يواجهه انئذ سوى السلطة الدينية التقليدية التي كانت في مرحلة الذبول مع انهيار الدولة العثمانية.

ثالثا: ان التيارات الفكرية الرئيسية الاخرى نشات في علاقة ما مع الفكر الاصلاحي التحديثي، مثلما هو الحال مع الفكر القومي العربي الذي نشأ كامتداد له ومع التوفيقية الاصولية الاسلامية التي نشات كخصم له.

لقد تاثر دعاة الفكر الاصلاحي التحديثي، من امثال: رفاعة الطهطاوي وبطرس وسليم البستاني واديب اسحق ويعقوب صروف وشبلي شميل... الخ، بشدة بافكار عصر التنوير الاوروبي عموما وافكار الثورة الفرنسية على وجه الخصوص. فقد اهتم الجيل الاول منهم (الطهطاوي، بطرس وسليم البستاني واديب اسحق...) بالتاكيد على الجانب